من أساطير الإغريق

يوم قيامة ...

أوطيش فيتون

للأستاذ دريني خشبة

عاد الفتى الساذج فيتون إلى أمه الحسناء الهيفاء كليمين، بعينين مغرورقتين، ونفس مكلومة، وفؤاد خافق متصدع، فجرى بينهما هذا الحديث:

— مالك يا حبيبي! لماذا تبكي؟

— ... ؟ ...

— لا. لا ... فيتون يبكي؟ هذا عجيب! أيكون أبوك أپوللو وتبكي؟!

— أپوللو أبي؟ كذب، كذب!

— كذب؟ وكيف يافيتون! أمك كذابة؟

— لا. لا. عفواً يا أماه! أنت لا تكذبين، ولكن ربما يكون كلامك سخرية بي!

— ولم أسخر بك يا بني؟

— الأولاد في المدرسة يغمزونني في أبي، وكلما حلفت لهم أن أبي أپوللو ضحكوا!

— دعهم يضحكوا يافيتون. ماذا يضيرك؟

— يضيرني أنني لم يعد لي وجه أريق ماءه بينهم، لا بد إذا كان أپوللو أبي أن ألقاه

— تلقى أپوللو؟

— ولم لا؟ أليس كل الأبناء يلقون آباءهم؟ فلم لا ألقى أبي؟ أأنا بدع من الناس؟

— لست بدعا، ولكن أپوللو في بلاد بعيدة ... إنه في الهند!

— ولم لا أذهب إلى الهند لأرى أبي؟ صفي لي الطريق بحق الآلهة عليك يا أماه

— إذهب إلى الأرض التي تشرق من أفقها ذكاء. فهناك ترى أباك

وذهب إلى الهند التي تقع في مشرق الشمس مباشرة؛ وكان عند شاطئ المحيط قصر باذخ منيف، لا يبلغ البصر مداه، ولا يدرك الطرف أوله ولا آخره ... وكان مع ذلك قائماً على عماد رفيعة من ذهب ركبت فيها ماسات كبيرة ذات سناء وذات لألاء. وكان سقفه العظيم المطعم بالعاج المصقول يلمع، ويكاد سناه يذهب بالأبصار؛ أما أبوابه فصيغت من الفضة الخالصة ونقشت فيها أبهى الرسوم؛ وافتنّ ڤلكان فصور فوق الجدران بالرسم البارز الأرض والبحر والسماء بما فيها من قطّان؛ فأقام في الأرض غابها وأدغالها ومدنها وأنهارها وجبالها ووديانها ... حتى آلهتها. وأبرز في البحر عرائسه الماتسات الفاتنات، فجعل منهن سابحات يتواثبن فوق الموج، وجالسات على النؤي يمشطن شعورهن الداكنة التي تحكي خضرة البحر، وراكبات على ظهور السمك وحيوان الماء يتلاعبن ويتضاحكن ... وجعلهن ذوات صور متشابهات وغير متشابهات، دليلاً على حذقه وجليل قدرته؛ وجعل فوق هذا كله صورة السماء بكل بروجها الاثني عشر، بحيث جعل منها ستة إلى اليمين، ومثلها إلى اليسار ... خلق ڤلكان، ومن أحسن من ڤلكان خلقا[1]؟!

وهكذا كان قصر الشمس آية من آيات الفن عجبا، ومع هذه الأبهة البالغة والعظمة الأخاذة، فقد تقدم فيتون غير هياب، ودخل في غير وجل، وكان يلمح اللمحة من الرسوم الجميلة والتصاوير الساحرة، ثم يسلك في سبيله قدما حتى كان في البهو الأعظم الذي يستوي في صدره أبوه، على عرش ممرد ناصع، تنعكس منه أضواء لامعة خاطفة، تبهر النظر، وتخسي الأبصار. وسار الفتى مسافة قليلة، ثم وقف مكانه عشيًّا من شدة الخطف

(١) ليذكر القارئ أن القصة أسطورة

والإيماض ، ولم يدر أيان يذهب ؛ وكان أبوه متشحاً بوشاح فضفاض أرجواني ، وعن يمينه وعن يساره وقفت الأيام والشهور والسنون ، ثم الساعات في صفوف منظومة متلاحقة ؛ ثم وقف الربيع — وتمثله هنا امرأة — وفوق رأسه إكليل جميل من الغار والزهر ؛ ومن بعده وقف الصيف ، وقد نضا جيب قميصه عن صدره ، وقبض على حزمة من سنابل القمح الناضجة بيمينه ؛ ثم همّ الخريف متهالكاً على نفسه ، وعلى قدميه أثارات من عصير العنب ... أما الشتاء ، فقد بدأ شيخاً وقوراً جلل الشيب رأسه ، وتراكم الثلج والبرد على شعره الناصع

وقد لمح أبوللو ولده فيتون حيث سمر مكانه ، وقد خطفت الأضواء بصره ، وأخذه المنظر العجب الذي سحره عن نفسه ، فيهتف به ويباركه ويقول :

— فيتون ! فيم قدمت يا بني ! لأمر ذي بال ، ليس من ذاك بد ؟

— أوه ! يا نور السموات والأرض يا فوبوس[1] ! يا أبي إن أذنت لي أن أناديك بهذا النداء ! إن كنت حقاً ابنك فزودني ببرهان أقدمه للناس حين أقول إني أنا ابن أبوللو

— برهان ؟

— أجل ، هب لي من لدنك برهاناً يثبت أبوتك لي ، فلقد استهزأ بي التلاميذ ، وفضحوني في بنوتي لك . لا بد من دليل ، هل تسمع ؟ لا بد من دليل !

— لا عليك يا بني ! لك ما أردت . على أنه كان ينبغي أن تصدق كل ما قلت لك أمك ؛ وأنا من جهتي لست أنكرك ، فأنت ابني وأنا والدك ، والآن سل ما شئت فاني مانحك أيّا ما تريد

— صحيح يا أبي ؟

— أولا تصدق ما أقول ؟

— بلى ، ولكن ليطمئن قلبي !

— صحيح يا بني ، وأقسم لك بهذه البحيرة المقدسة التي يحلف بها الآلهة

فيتلفت فيتون حوله ليرى البحيرة ، ولكنه لا يجد لها أثراً

— وأين هي تلك البحيرة يا أبتاه !

— ولد ظريف يا فيتون ! أنا ما رأيتها قط ، ولكنا نحلف بها في كل أمر جلل يا بني !

— إذن هب لي أن أسوق محفة الشمس يوماً واحداً بدلاً منك

— ويْ ! فيتون ! أي طلب هذا ؟

— لا بد !

— محال يا ولدي ! أنت حدث ، ثم أنت بشري من بني الموتى ! سل ملء الأرض ذهباً أمنحك ما تريد !

— كلا ، كلا ... لا بد أن أسوق محفة الشمس من المشرق إلى المغرب ليراني سفهاء التلاميذ ، وليتأكدوا أنني ابن أبوللو !!

— إنها ستحرقك وتحرق التلاميذ إخوانك قبل أن يروك !

— لا ... لن تحرقني ، أنت قادر على أن تجعلني أحتمل كل شيء ! ألَسْتَ إلهاً !

— بلى ، ولكن ...

— لكن ما ذا ؟ لا بد ، لا بد ، محال أن أسألك شيئاً آخر !

— يا بني إن هذا ليس في طوقك ، إنك ضعيف صغير ، والعمل الذي تطلب أن تتولاه شاق حتى على الآلهة ، إني أقوم به والرعب يملأ قلبي ، وأنا من أنا يا فيتون ... إن سيد الأولمب نفسه ، الإله الأكبر ، جوف ، جل سناؤه ، وتقدست أسماؤه ، لا يستطيع أن يسوق عربتي الملتهبة ذات اللظى يوماً أو بعض يوم ، فما بالك أنت ؟ إن الثلث الأول من الطريق صعب المرتقى لأنه يميل قليلا قليلا عن خط العمود ؛ وخيلي ترقى مزالقه[1] في صعوبة ليس بعدها صعوبة ؛ والثلث الثاني عال شديد العلو ، لأنه يرتفع فوق قمة العالم ، حتى لأجزع أنا نفسي من أن أنظر إلى أسفل تقية للدوار يأخذ في رأسي[2] حين أرى إلى البحر المتمرد والبطاح الشاسعة والجبال الشم تزدلف من تحتي ؛ أما الثلث الأخير فمنحدر شاق كمهاوي الجبل إذا وقفت عليه فوق شَعَفَته[3] ، ولذا فهو يقتضي الحذر وحصر البصر ؛ حتى إن تائه الواقف في نهايته ليتلقاني ، يرتعد من الخوف عليّ ، والرثاء لي ، خشية أن أتردى في هاوية اللانهاية . هذا ، ولا تنس السماء التي تجري فوقي لتستقر لها ، بكل ما فيها من كواكب وأجرام ، فاذا غفلت لحظة ، أو أخطأت قيادة العربة ، جرفتني في دوراتها إلى حيث لا أعلم أين تذهب أو تستقر بي . ثم تدبر مني قليلا يا فيتون ، إذا أنا سمحت لك بقيادة العربة ، فماذا يصيبك من الهلع حين تنظر إلى السفل فترى الأرض تلف ، والسباع تهمهم في الأدغال ، والناس يكظون المدن ، والآلهة تطل من قصور الأثير ، والأشباح تسري حواليك كالسماديم ؟ ما ذا من

(١) أحد أسماء أبوللو

(١) المزالف : المراقي (٢) هذه عبارة القاموس (٣) قمته

الروع يعتريك يا ولدى ؟ هل تستطيع أن تكبح جماح الخيل أو حتى تملك ألاّ يفلت العنان منك ؟ إنك ستمر بين قرنى الثور أمام الحوت ، وعلى مقربة من فكي العقرب وذراعى السرطان .. يا بنى ! هل تستطيع أن تقود الخيل التى تنفث اللهب من مناخرها وأفواهها وسط هذه الدُّنى الدائبة ؟ اختر لنفسك يا بنى ولا تجعل الناس يقولون أهلكه أبوه »

وتشبث فيتون وركب رأسه ، ولم يشأ أن ينكل قيد شعرة ؛ فلم يسع أبوللو إلا أن ينطلق به حيث عربة الشمس ! العربة العظيمة المطهمة ، المصنوعة كلها من الذهب الخالص ، وقليل من الفضة المزركشة باللآلىء والجوهر ، وأحجار الماس التى تعكس أشعة الشمس جميعاً فتضاعف أضواءها ، وتزيد كثيراً فى لألائها

وتقدمت ربة الفجر ففتحت أبواب المشرق ، ونضرت بالورد طريق أبوللو ؟ ثم أخذت النجوم تنب كالحمائم قِبَل المغرب وفى أثرها نجمة الصبح فريدة كأنها الورقاء

وتلفت أبوللو إلى الساعات المنتشرة عن جانبيه ، فأمرهن أن يسرجن الخيل ، فأطعن ، وقصدن إلى الإسطبل الكبير حيث وجدن الخيل قد التهمت كفايتها من العلف المقدس ، فوضعن فى أفواهها اللجم ، وأسرجنها بكامل عدتها

وتناول أبوللو وجه ولده فنضحه بطيوب إلهية ، وضمخه بدهن كريم ، ثم قطر فى عينيه قطرات من ماء أولب ، كي يقوى الفتى على تحمل الحرارة الفائقة ، والصبر لضوء الشمس القوى ؛ ثم وضع على رأسه الصغير هالة النور الربانية ، وأشار إليه فاستوى على العربة العظمى التى تجر الشمس ، فتنير أقطار السموات والأرض ، وقال يوصيه :

— « أى بنى ! ها قد استويت على عربة أبيك التى ما قادها من قبل أحد غيره ، ولا يقدر عليها أحد سواه ! أى بنى فاشدد إليك أعنة الخيل ، وتجنب أن تلهبها بهذا السوط ، فهى قد مرنت على الطريق وهي لا تبطيء حتى تحتاج إلى أن تساط . أى بنى ولا تنحرف عن شمالك أبدا ، وظل منهجاً سبيل الاستواء الذى هو الدائرة الوسطى من الدوائر الخمس ؛ واحذر أن تعلو إلى الدائرة العليا أو أن تسفل إلى الدائرة السفلى ؛ وسترى آثار رحلاتى من قبل ، فسر على دربها تصل إن شاء الله . أي بنى ولا ترتق معارج السموات فتصعب مساكن الآلهة ، ولا تهو قريباً من الأرض فتجعل كل ما فيها هشيما جُرُزاً ، بل خذ الطريق الوسطى أبداً ، فإن خير الأمور أوساطها ... فإذا أفلتت الأزمة من يديك ، فظل حيث أنت ، ولا تذهب مذاهب شتى فى رُحب السماء . وسأتولى أنا بعد ذلك إنارة الأرض والسموات . أى بنى وما دمت قد اخترت لنفسك برغمي ، فلا أقل من أن تعى نصيحتى والسلام عليك »

ورد فيتون على أبيه السلام ... وانطلق من أبواب المشرق وطفقت الخيل الصافنات تنفث اللظى فتموه السحب بالذهب ، وتسابق أنفاس النسيم التى تهب هي الأخرى رخاء من أبواب المشرق

وعجبت الخيل بعد شوط قصير من هذا الحمل الخفيف الذى لا عهد لها به ؛ وعجبت أكثر حين أحست بالعربة تتأرجح خلفها كالزورق الذى له ليس له صُبرة[1] تثبت به فى مهب الأعاصير

وجمحت الخيل ... وانطلقت فى غير طريقها المعهود ... ولأول مرة ارتفعت حتى كادت تلتمس الدبين الأكبر والأصغر ، فثار ثائرها من لفح الحر ؛ ولأول مرة كذلك تحرك الثعبان النحوى فوق نجم الشمال حين أحس الدفء فنفث سمه الذعاف ، وفرت من طريقه الكواكب ... ونظر فيتون تحته ، فرأى الأرض تلف كالخذروف فريع قلبه ، وزلزلت نفسه ، وسقطت من يديه أعنة الخيل فجرت به فى السفل حتى اقتربت من الأرض ... ونظر وراءه .. فرأى أنه لم يقطع من الثلث الأول إلا أقله ؛ ثم نظر أمامه فوجد أكثر الطريق وأوعره ، فزادت حيرته ، وأسقط فى يديه ، وترك كل شيء للقضاء والقدر ... وضاعف ربكته نسيانه أسماء الجياد ... وحدث أن ارتفعت هذه فجأة ، حتى كانت قاب قوسين من فكي العقرب ، ذلك الهولة المخيف الذى أوشك يبتلع العربة بمن فيها .. وشدهت ديانا ربة القمر حين رأت عربة أخيها تتخبط فى الآفاق ، وتصطدم بالكواكب ، فتحدث الشهب ، وتحرق العوالم السماوية : « ترى ماذا أصاب أبوللو ؟ مسكين ! لابد أنه نام . على كل حال سيستيقظ ! » ولكن العربة هبطت فجأة حتى صارت فى سماء الأرض ، وحتى صارت الأرض منها على مدى رمية سهم ... فما هي إلا لحظات حتى شبت الحرائق فى كل الأرجاء ... ها هي ذى الغابات العظيمة تشتعل ... وها هى ذى ألسن النيران ترقص فى كل فج ... وها هى ذى الوحوش تجري هنا وهناك ثم تسقط فى كل البقاع ... والمدن ! المدن العامرة الآهلة ... إنها تحترق بمن فيها من شيوخ ضعفاء ونساء وولدان ... أما الشباب ! فوا أسفاه على

(١) الصبرة والصبارة : الحجر الذى يضعه الملاح فى قعر زورقه حتى لا يميل فيغرق ، ويسميه العوام (الصابورة)

الشباب ! إنهم يجرون كالجان إلى البحار والمحيطات والأنهار والينابيع ! وهاهم أولاء يقذفون بنفوسهم فيها ... ولكن ! واأسفاه ! إن مياه البحار والمحيطات والأنهار والينابيع تغلي وتفور ، ويعب عبابها بالحمم ، فالشباب يستجيرون فيها من الرمضاء بالنار ! لقد بادت أمم بتمامها ، واختبأت أمم في الغيران والكهوف وشقوق الأرض والجبال ... أما الطيور فقد خربت أوكارها ووكناتها ، ولم يسلم منها إلا ما لاذ بالخوص أو أدحى (١) ... ومسكينات عرائس البحار ! لقد شحبت ألوانهن ، وذوى جمالهن وغمسن في الأعماق مع السمك يلتمسن الماء البارد ، ولجأت أسراب منهن إلى البحار الجنوبية ، وآثرن أن يعاشرن البنجوين ! ... أما قمم الجبال العالية التي ظلت منذ الأزل مجللة بركام الثلج ، فقد خلت حللها الناصعة ، وحلت عمائمها المخملية ، وصارت تلتهب ... فهذه طوروس الشماء ، وتلك القوقاز العاتية ، وهاتيك الألب المزهوة ... كلها تلتهب ... كلها تقذف بالحمم ... حتى أولمب مثوى الآلهة ، لقد غدا كومة عالية جداً من النار .

ولقد كانت الصحراء اللوبية فراديس يانعة ولكن فيتون المجنون حولها إلى رمال وكثبان ، ولولا أن أدخل النيل رأسه في كثيب مهيل منها لجف ماؤه ، وتبخر في السماء كله ، ليجري في كوكب آخر ! وهكذا فعل الفرات وأخوه ، وكذلك صنع الكنج والسند ... فشكراً لكل الأنهار التي ضنت بنفسها من أجل سعادة البقية الباقية من النوع البشري !

يا لَهُ يوم قيامة ؟! لقد ضجت الآلهة في الأرض ، وكلما حاول نبتيون الجبار إله البحار أن يخرج رأسه من اليم ليجأر بالشكوى إلى أخيه كبير الآلهة ، خاف وذعر أن تحرقه الشمس الهوجاء التي يسوق عربتها فيتون ... ولولا أن جازفت أمنا الأرض فبرزت من المحيطات وهتفت بجوف العظيم ، لأصاب من بقي العذاب الأليم ... لقد قالت له : « ياجوف العلي ؟ يارب الأرباب ! إصغ إلي ، واستجب لدعائي ! ماهذا الذي نامت عيناك عنه فذهب بزرعي وضرعي ؟ أهذا جزاء خصوبتي وما تهب عبادك من حَبٍّ وأبٍّ وعنبٍ وقضبٍ وحدائق غُلب ؟ ! أهكذا تكون عاقبة إخلاصي في مكافأة عبادك الذين يقيمون لك الهيا كل ويبتون باسمك الصوامع والمعابد ؟ ماذا من القرابين يارب الأرباب يُذبح باسمك بعد أن يهلك كل ماعلى من قطعان وأسراب ورِعَال ؟ ثم هذه العوالم التي ما أنشأتها إلا بعد عناء وجهد ! كيف تدع هذه الشمس الرعناء تأتي عليها جميعاً ، وتصير كل شيء في مُلكك إلى هيولي ؟ استيقظ ياجوف واستمع ، وأدركنا بلطفك هذه الساعة التي نحن فيها أشد مانكون في حاجة إليك. آمين ! »

* * *

وهب جوف من سباته العميق على جؤار ربة الأرض ؛ وأبصر فرأى ماحل بالعالم الجميل من تدمير وويال ... فألم وتصدع ... ونظر إلى عربة الشمس ينتفض فوقها غلام يافع عرف فيما بعد أنه فيتون بن أبوللو فهاج وماج ، وأخذ صاعقة من أكبر صواعقه وأقتلها ، ثم أحكم تسديدها إلى الراكب المجنون .. وأرسلها تقصف وتعزف ... وتهز الأفلاك ... فأصماه وأرداه !!

وسقط الغلام الأحيمق من عُلو العالم يتقلب في نهر إريدانوس المتدفق في سهول إيطاليا ... حيث مات ... واستراحت الدنيا كلها منه ! وعادت الشمس إلى ربها ... أبوللو المسكين ... فهو يجري بها إلى اليوم لمستقر لها !!

أما كليمين البائسة ، فهي إلى اليوم تبكي ولدها ... وقد بكته معها أخواتها ، وكن في كل صباح يذهبن إلى النهر الذي سقط فيه فيسكبن دموعهن ، حتى رثت لهن الآلهة ، فسحرتهن إلى أيكات ثلاث من شجر الحور ، فهن حانيات على النهر منذ ذلك اليوم حنو المرضعات على الفطيم

وكلما سكبن دموعهن حارت إلى كهرمان كريم

وحزن سيكنوس ، صديق فيتون ، على خدن صباه ، فجمع رفاته وبنى لها قبراً من الرخام تظله الشجرات

دريني خشبة

استدراك

جاء في مقال « كليلة ودمنة » المنشور بالعدد الماضي من «الرسالة» صفحة ١٦١٧ « فلا يسعنا إلا أن نذكر بمزيد الإعجاب فضل إبراهيم الصولي » والصواب « أبي بكر الصولي »

(١) الأخوص عش في الأرض ، والأدحي بيت النعام

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي عمارة عجيم رقم ٧